الاِستِخْبَارَاتُ والحَرْبُ في أُوكرَانيَا

الجزءُ الأولُ

المصدر

War on the Rocks - منصة للتحليل والنقاش

حول الاستراتيجية شؤون الحَرْب - مايو / أيار 2022

ترجمة: الخَطَّابِي للدراسات - أكتوبر / تشرين الأول 2022

مركز الخطابي للدراسات
Khattabi Centre for Studies

الاِستِخْبَارَاتُ والحَرْبُ في أُوكرَانيَا

الجزءُ الأولُ

المصدر: War on the Rocks -منصة للتحليل والنقاش حول الاستراتيجية شؤون الحَرْب- مايو 11, 2022

ترجمة: مركز الخطابي - أكتوبر - تشرين الأول 2022

كلما سارت الأمور باتجاه الحَرْب ثارت التكهنات والاتهامات والاتهامات المضادة بالفشل الاِستِخْبَارَاتيّ. ولا يخفى على أحد أن وكالات الاِستِخْبَارَات غالباً ما تتعرض للانتقاد عندما تسوء الأمور ظاهرياً. ويستغل السياسيون على وجه الخصوص الإيحاءات المنحرفة لمصطلح "فشل الاِستِخْبَارَات"، فهو يعيد توجيه الانتباه من القرارات السياسية السيئة نحو المهنيين المجهولين عادةً في عالم الاِستِخْبَارَات، وهو مجتمع يثير الريبة وسيئ الصيت بقدر ما يُثنى عليه ويُشاد به. منذ تفكيك إدارة بوش لأسلحة الدمار الشامل العراقية، سَخِرت مجتمعات الاِستِخْبَارَات من الاستخدام العام للنتاج الاِستِخْبَارَاتيّ، ولن تقع في الفخ مرة أخرى. ويمثّل دور الاِستِخْبَارَات خلال الفترة الَّتِي سبقت غزو أُوكرَانيَا وما بعدها فصلاً جديداً تماماً في الاستخدام السياسي والدبلوماسي للاستخبارات في الشؤون الدولية، ويعود هَذَا لسببين مختلفين ولكنهما مترابطان، أولهما أن العلم السابق للغزو الروسي يمثّل نجاحاً مدوّياً ً في فرع استخبارات كثيراً ما اشتُهِر بالوقوع في الأخطاء، ألا وهو: استخبارات التحذير الاستراتيجي، وثانيهما أن عقوداً من الشفافية العامة المتزايدة حول الاِستِخْبَارَات، مقترنة بتحولات غير مسبوقة في قدرات وتوافر المعلومات الاِستِخْبَارَاتِيَّة مفتوحة المصدر، جعلت من الممكن للسياسيين والدبلوماسيين والمجتمعات الدفاعية الكشف عن استعدادات رُوسْيَا ونواياها الحربية وتحدّيها والتحذير منها.

في هَذَا الجزء الأول من مناقشتنا، سنولي اهتماماً خاصاً للمبادرات الَّتِي اتخذتها بريطانيا والولايات المتحدة وبعض الدول الأصغر في أوروبا، والَّتِي سمح استخدامها الفعَّالُ للمعلومات الاِستِخْبَارَاتِيَّة التحذيرية للدول الغربية بمواجهة رُوسْيَا ودعم أُوكرَانيَا قبل 24 شباط بوقتٍ كافٍ. وقدّم التحذير الناجح فسحة من الوقت لمساعدة الأوكرانيين وتجهيزهم وتدريبهم في استعداداتهم الدفاعية. كانت الحكومات الغربية راغبةً في إلغاء سرّيّة المعلومات والتقييمات لدعم التحذيرات من العدوان الروسي الوشيك. كما استفادوا مع المؤسسات الإعلامية من المعلومات الاِستِخْبَارَاتِيَّة مفتوحة المصدر بدلاً من التأكيد على مصادر سرّيّة غير محددة بشكل غير مباشر لجعل تحذيراتهم أكثر إقناعاً للشعب والحكومات الحليفة. وقد جعل ذلك من الممكن انتزاع زمام المبادرة من المحاولات الرُّوسِيَّة للإنكار والخداع والمراوغة، مما دحض مثل هَذِهِ الجهود وشوّه سمعتها قبل أن تحدث من خلال سياسة "الإجراءات المُسبقة" الوقائية. لم يكن بالوسع منع الغزو، لكن دراسة هَذِهِ الحالة الجارية تمثِّل تغييراً تدريجياً يوضّحُ الاستخدام الإيجابي للاستخبارات من أجل "التأثير".

نجاح أم فشل؟

في كل صراع وأزمة تقريباً، تبرز اتهامات "الفشل الاِستِخْبَارَاتيّ" بشكل شبه تلقائي، وقد يكون ذلك بمثابة تملص من اللوم، وغالباً ما يبدو أن التحذيرَ الاستراتيجي عُرضةٌ له بشكل خاص. وتستخدم استخبارات التحذير منهجية "المؤشرات والتحذير" الَّتِي يحاول فيها المرء تلمُّس بصمات النيات والتحضيرات المخفيّة. لا يوجد نظام مثالي، ولا يزال خطر المفاجأة قائماً، كما تشهد على ذلك حالات مثل محاولة الأرجنتين الاستيلاء على جزر فوكلاند في عام 1982 والغزو الروسي الناجح لشبه جزيرة القرم عام 2014.

ومع ذلك فإطلاق التحذير قرارٌ صعبٌ دائماً. وعلى الرغم من القدرات المؤثّرة الَّتِي أبداها الحلفاء الغربيون للكشف عن الأنشطة الرُّوسِيَّة والاستعداد لمشاركة تلك المعلومات، لم يتوصّل جميع الحلفاء والشركاء إلى نفس الاستنتاجات. كما تبادلوا هَذِهِ البيانات وتقييماتهم مع نظرائهم الأوكرانيين الذين سعوا جاهدين للوصول إلى تقديرهم الخاص للحالة كما سنرى. وبطبيعة الحال فلم تظهر جميع ملابسات الأحجية، لكنَّ كميةَ المعلومات مفتوحة المصدر - وغالباً في الوقت الحقيقي - حول الحشد العسكري لموسكو أعطت أساساً متيناً للتقييم على ما يبدو. وقد سمح دور القطاع الخاص ومجموعة المصادر المفتوحة الأوسع نطاقاً حتى للصحفيين والشعب بمشاهدة الحشد الروسي، وأظهرت الصور الَّتِي التقطتها شركة ماكسار الأمريكية لتكنولوجيا الفضاء، والمنشورات الَّتِي جُمِعت على وسائل التواصل الاجتماعي، حشداً عامّاً جداً للقوات الرُّوسِيَّة، ولا شك أن الصورة أكثر وضوحاً بالنسبة لأولئك الذين لديهم إمكانية الوصول إلى القدرات الاِستِخْبَارَاتِيَّة القائمة على الدولة. ويمكن للمرء أن يستنتج أن التحذير كَانَ ينبغي أن يكون واضحاً، لأن الحشد الروسي حدث على مرأى من الجميع. ولكن في حين أن الكشف عن القدرات - الأفراد والمعدات والبنية التحتية - بسيط نسبياً، فإن تقييم النية ليس كذلك. وبالنسبة للأخير، يجب على محلل التحذير أن يبحث عن الإجراءات الَّتِي لن يتخذها الخصم وأن يعترف بها ما لم يكن ينوي الغزو.

وقدمت تقييمات القوى الغربية قراءةً كاملةً، وجاءت على رأس التدريبات العسكرية الرُّوسِيَّة في عام 2021. وفي نيسان، قامت رُوسْيَا بـ "تفقُّد مفاجئ" لجبهتيها الجنوبية والغربية، رداً على تحركات

عدوانية مُفتَرَضَة من جانب الولايات المتحدة وحلفاء حلف شمال الأطلسي، مما أثار مخاوف من احتمال نشوب صراع. وصرّح وزير الخارجية أنتوني بلينكن في اجتماع بمقر حلف شمال الأطلسي "نشهد الآن أكبر حشد للقوات الرُّوسِيَّة على حدود أُوكرَانيَا منذ عام 2014" مما دفع الرئيس جو بايدن إلى إعادة تأكيد التزامات الولايات المتحدة تجاه أُوكرَانيَا. وفي ذلك الوقت، أشار المحللون إلى أن أعداد القُوَات الرُّوسِيَّة تجاوزت الأعداد الَّتِي شاركت في ضمّ شبه جزيرة القرم لأراضيهم عام 2014، حيث أشارت مصادر أوكرانية إلى أن عددهم يصل إلى ثمانين ألف جندي.

كما كَانَ المحللون على دراية تامة بتدريبات زاباد 21 وهي واحدة من سلسلة من التدريبات الاعتيادية الَّتِي تتعاقب عبر المناطق العسكرية الرئيسية الأربع في رُوسْيَا كل عام. ووضّحت زاباد-2021 هدف رُوسْيَا على المدى الطويل المُتمثِّل في دمج القُوَات البيلاروسية في الهياكل الَّتِي تقودها رُوسْيَا. وقد حدث ذلك على خلفية التوترات بين رُوسْيَا وحلف شمال الأطلسي، وجهود موسكو الخاصة لتعزيز المصالح الأمنية في بيلاروسيا بعد الاحتجاجات الفاشلة المؤيدة للديمقراطية في آب عام 2020. وعلى الرغم من أن الأرقام المُشارِكة في "زاباد-21 كانت ضخمة إلى حدٍّ كبير، حتى أن رُوسْيَا اقترحت مشاركة ما يصل إلى مئتي ألف جندي، إلا أن التدريبات دقت ناقوس الخطر من موقف بيلاروسيا في أي صراع مستقبلي.

وعلى الرغم من أن نوايا موسكو النهائية لم تكن واضحة، إلا أن مسؤولي الاِستِخْبَارَات الغربيين كانوا على دراية تامة بالحشد العسكري. وأظهرت البيانات الاِستِخْبَارَاتِيَّة الموجَزة الَّتِي اطّلعت عليها صحيفة واشنطن بوست في كانون الأول عام 2021 أن المسؤولين الأمريكيين يعتقدون أن رُوسْيَا نشرت سبعين ألف جندي، وستكون قادرةً على نشر ما يصل إلى مئة وخمسة وسبعين ألف جندي على طول الحدود الأوكرانية، بما في ذلك مئة مجموعة تكتيكية تابعة للكتيبة وقادرة على شن هجوم في أوائل عام 2022. وعلى الرغم من هَذِهِ التعزيزات، قال المسؤولون أن عمليات نشر الجنود كانت مُعدَّة "للتعتيم على النوايا وخلق حالة من عدم اليقين". شكلت هَذِهِ الصورة الاِستِخْبَارَاتِيَّة أساس تحذير بلينكن لوزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف خلال محادثات في كوبنهاغن من أن رُوسْيَا ستواجه "عواقب وخيمة" إذا حدث غزو.

وشعر المسؤولون البريطانيون بقلق أكبر بشأن احتمال حدوث غزو في نفس الوقت تقريباً، حيث لم تَعُد الوحدات الرئيسية أو البارزة المنتشرة في زاباد-21 إلى مواقعها الأصلية، بل بقيت في بيلاروسيا مع مخزونات الذخيرة الكبيرة. وكشفت صور الأقمار الصناعية عن الحشد التدريجي للقوات الرُّوسِيَّة، والأهم منذالك نشر الوحدات الداعمة اللازمة لمواصلة الغزو. كما أعرب المسؤولون الأمريكيون عن قلقهم إزاء توزيع الإمدادات الطبية، بينما أشار جهاز الاِستِخْبَارَات الخارجية الإستوني (Välisluureamet) إلى عمليات واسعة النطاق. وقالوا في تقريرهم السنوي "إن القُوَات المسلحة الرُّوسِيَّة مستعدة للشروع في عملية عسكرية واسعة النطاق ضد أُوكرَانيَا اعتباراً من النصف الثاني من شباط حسب تقديراتنا. وبمجرد تحقيق الاستعداد العسكري، لا يلزم سوى اتخاذ قرار سياسي لإطلاق العملية". وتشير التقديرات الإستونية إلى وجود ما يزيد عن مئة وخمسين ألف جندي ينتشرون من جميع أنحاء المناطق العسكرية الرُّوسِيَّة. وخَلُصَ المسؤولون إلى أن "هَذَا هو أكبر حشد عسكري من طرف واحد من قبل رُوسْيَا في السنوات الثلاثين الماضية".

ومع ذلك، كانت هناك خلافات بين حلفاء الناتو. وفي حديثه إلى الصحفيين في آذار، أشار رئيس أركان الجيش الفرنسي تييري بوركهارد إلى أن الغزو الروسي كَانَ "جزءاً من الخيارات" في عام 2021. وفي الواقع، أكد المسؤولون الفرنسيون أن أي هجوم، إذا كَانَ محتملاً، سيُؤَجَّل بانتظار "الظروف الجوية المواتية"، واختلفوا مع نظرائهم في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة حول النتيجة المُحتملة. وقال بوركهارد "صرّح الأمريكيون أن الروس سيشنّون هجوماً". وأضاف "اعتقدت أجهزة استخباراتنا أن غزو أُوكرَانيَا سيكون باهظ التكلفة وأن الروس لديهم خيارات أخرى". وأشار بوركهارد إلى أن الاِستِخْبَارَات العسكرية الفرنسية لم تصل إلا إلى وجهة النظر القائلة بأن هجوماً وشيكاً سيحدث بعد أن تلقت معلومات استخبارية من حلفاء الناتو في مساء اليوم السابق للهجوم. وفي آذار، أفادت الأنباء أن الجنرال إريك فيدو، مدير الاِستِخْبَارَات العسكرية، سيتخلى عن منصبه قبل تقاعده، مشيرةً إلى إحاطة "غير كافية" حول التهديد الروسي لأوكرانيا.

لم يكن المسؤولون الفرنسيون وحدهم الذين قللوا من شأن الخطر، وقالت مصادر أمنية لصحيفة دير شبيغل الألمانية أنه توجَّب حماية رئيس جهاز الاِستِخْبَارَات الألماني برونو كال من قِبَل بعثة القُوَات الخاصة الَّتِي نُظِّمت على عجل لإنقاذه فقد كَانَ في أُوكرَانيَا لإجراء محادثات مقررة عندما بدأ الغزو.

إن إسقاط منطق المرء على ذهن الخصم خطأٌ تحليلي شائع. والواقع أن الفرنسيين ربما أثبتوا أنهم على حق في أن الغزو قد كلّف الروس بالفعل "تكلفة باهظة"، على الأقل بالمقاييس الأوروبية الراهنة. وفي هَذِهِ الحالة، فشل الفرنسيون في فهم التكاليف الَّتِي كَانَ الروس مُستعدِّين لتحمُّلِها لتحقيق أهدافهم. وربما لا تكون قيم واهتمامات الحكومات الغربية - كالاقتصاد والوظائف والتجارة والرفاهية العامة والشعبية والقدرة على إعادة الانتخاب - ذات صلة بحسابات رُوسْيَا الاستراتيجية والَّتِي غالباً ما تحتلُّ الصدارة بلا مُنازع، بينما يولي بوتين اهتماماً أقل بالمجتمع المدني والنفقات البشرية - وهي سمة مشتركة للقيادة الاستبدادية.

ولم تكن فرنسا وحدها في هَذَا الصدد. وقال مستشار استخباراتي مقرَّب من زيلينسكي أنه يعتقد أن بوتين كَانَ يُخادِع حتى يوم النصر، متسلحاً بتقييمات بريطانية وأمريكية بالإضافة إلى تقييمات موظفيه، الذين توقَّعوا أن يحقق أهدافه دون غزو. لقد كانت شعبية زيلينسكي منخفضة، وكَانَ الوضع السياسي غير مستقر. فلماذا يجب على رُوسْيَا أن تضرب الآن؟ لماذا لا تنتظر؟ لقد وقع المستشارون الأوكرانيون فريسة لفشلين حاسمين، أولهما التردد في الاعتقاد بأن بوتين قد يغزو، خلافاً للمنطق السليم، بالإضافة إلى ذلك، قد يرجع هَذَا أيضاً إلى أهداف كييف المتمثلة في عدم إثارة الذعر - وهو ما قاله زيلينسكي قبيل الغزو. وكَانَ الفشل الثاني أخطر فقد ركَّزت كييف على مؤشر واحد محدد على النية الوشيكة للغزو، وكَانَ هَذَا المؤشر عبارة عن أوامر لبعض الاستعدادات التكتيكية الَّتِي اعتبرها الأوكرانيون ضرورية لغزو ناجح، ولكنها لم تتحقق أبداً قبل 24 شباط. ولسوء الحظ، فافتراض أن أُوكرَانيَا لن تكون غبية لدرجة إطلاق عملية بدون مثل هَذِهِ التدابير، لا يعني أن هَذَا ينطبق على رُوسْيَا، لكن لحسن الحظ، لم يقوِّض هَذَا التركيز استراتيجية أُوكرَانيَا الدفاعية، ربما كَانَ هَذَا امتثالاً لقاعدة الاستعداد للأسوأ مع تمنِّي الأفضل. وإذا كَانَ الأمر كذلك، فهو حادث كاشفٌ جداً للتفاعل بين الاِستِخْبَارَات والتخطيط لدى القيادة العليا الأوكرانية، والَّتِي نناقشها في الجزء الثاني من هَذِهِ المقالة.

قد يكون المحللون الغربيون وقعوا في بعض الأخطاء التحليلية في التنبؤ - على عكس الروس - بأن أُوكرَانيَا ستُهزّم بسرعة أمام الغزو الروسي. وكما نقل بعض المسؤولين الأمريكيين إلى الصحفيين، فإن "الغزو الروسي يمكن أن يهزم الجيش الأوكراني بسرعة نسبيَّة، على الرغم من أن موسكو قد تجد صعوبة في إبقاء الاحتلال والتعامل مع عصيان محتمل". وأضافوا أن الغزو "سوف يُسفِر عن 25 إلى 50 ألف قتيل مدني، وإلى مقتل خمسة آلاف إلى خمسة وعشرين ألف جندي أوكراني وثلاثة آلاف إلى عشرة آلاف روسي. كما يمكن أن يؤدي إلى تدفق من مليون إلى خمسة ملايين لاجئ معظمهم إلى بولندا". وربما سادت حالة حذر في التفاؤل بشأن فرص أُوكرَانيَا، بعد أن حالة الإحباط بعد الانهيار السريع لأفغانستان أمام طالبان. ومع ذلك، تحركت لندن وواشنطن لتعزيز دفاعات أُوكرَانيَا بسرعة - وقد أحدث هَذَا الدعم فارقاً كبيراً في كل من القدرة المادية للقوات الأوكرانية ومعنوياتها، ولم تتجاوز التقديرات المُتعلِّقَة بوقوع الضحايا وخروج النازحين هامش الخطأ الَّذِي قدمه المسؤولون الأمريكيون. وفي هَذِهِ الحالة، سيكون من غير العادل القول أن التقديرات الغربية لفرص المقاومة الأوكرانية تشكل فشلاً استخباراتياً. وهَذَا هو التناقض في التحذير الاِستِخْبَارَاتيّ: إذا حذّر المحللون من حدث رهيب، مما دفع الدولة إلى اتخاذ إجراءات أدت لتجنُّبه، فهل كَانَ التقدير الأوَّلي خاطئاً؟ الجواب: لا. وتُسلِّط الاختلافات في التقييمات الاِستِخْبَارَاتِيَّة من أُوكرَانيَا ومختلف حلفاء الناتو الضوء على الطبيعة غير المستقرة للتحذير الاستراتيجي.

التحذيرُ:

من الصعب دوماً التنبؤ بتوقيت الهجوم. فمن ناحية، يشعر مسؤولو الاِستِخْبَارَات دائماً بالقلق من وقت التحذير. وإن عتبة التحذير المنخفضة جداً ستؤدي إلى أن يتم تجاهل التحذيرات المستقبلية. وإذا كانت عتبة التحذير مرتفعة جداً، فقد لا تكون المعلومات الاِستِخْبَارِيَّة قابلة للتنفيذ. وعلى الجانب الآخر، يمكن اتخاذ القرار النهائي بالهجوم في فترة زمنية قصيرة نسبياً. وكتب غرابو: "بمجرد أن تصبح القُوَات في وضع يمكّنها من الانطلاق، فإن أوامر الهجوم تحتاج عادة أن تصدر قبل بضع ساعات لا أكثر." وهو استنتاج مدعوم بتقرير صادر عن مسؤول الاِستِخْبَارَات البريطانية دوغلاس نيكول، الَّذِي طُلب منه في الثمانينات النظر في التحذير الاستراتيجي. وكما استنتج نيكول، "النقطة الأساسية الَّتِي يجب ملاحظتها هي أنه بينما قد يستمر التخطيط والتجهيز والتدريب حتى عام من الأمر الأولي للقوات المسلحة بالاستعداد، فإن فترة إعداد القُوَات وتعبئتها ونشرها قد تكون قصيرة جداً".

كانت المشكلة دائماً هي تحديد الوقت الَّذِي ستهاجم الدول فيه، وهي قضية يوضحها تاريخ لجنة الاِستِخْبَارَات المشتركة. ويصبح هَذَا الأمر أكثر تعقيداً عند محاولة فهم نيّات القادة المُستبدِّين مثل فلاديمير بوتين. هل كَانَ بوتين يأمل في شنّ حرب دبلوماسية قوية ضد أُوكرَانيَا والغرب؟ هل ستنفِّذ موسكو عملية محدودة، أم ستسعى لتحقيق أهداف طموحة تشمل أُوكرَانيَا بأكملها؟ ومتى سيحدث كل ذلك؟

وعلى الرغم من حشد القُوَات الرُّوسِيَّة، حافَظَ المسؤولون الأمريكيون على سعة في الأفق حول ما إذا كَانَ قد اتُّخِذ قرار بالغزو. وفي كانون الأول، في أعقاب زيارة قام بها مدير وكالة الاِستِخْبَارَات المركزية بيل بيرنز إلى موسكو، كرر مستشار الأمن القومي للبيت الأبيض جيك سوليفان قوله أن المعلومات الاِستِخْبَارَاتِيَّة أظهرت أن "[بوتين] لم يتخذ قراراً بعد"، حتى لو اعتقد المحللون أن "الحكومة الرُّوسِيَّة تولي اهتماماً جاداً وتخطيطاً عملياتياً لمثل هَذَا التدريب"، وهي وجهة نظر ظلت مهيمنة حتى كانون الثاني. وقبل أقل من أسبوع بقليل من الغزو، قال الرئيس بايدن أنه "مُقتَنِع" بأن هجوماً سيحدث في "الأيام المقبلة".

ومن المؤكد كَانَ تقديراً دقيقاً، فقد فاجأ الغزوُ بعضَ حلفاء الناتو وحتى أعضاء الحكومة الرُّوسِيَّة والقُوَات المسلحة. وألغى بلينكن مشاركته في المحادثات مع لافروف قبل يومين من الغزو، بعد اعتراف رُوسْيَا بالمناطق الانفصالية.

هل يُعتبَرُ النفيُ المسبقُ نجاحاً؟

إذا كَانَ نجاح استخبارات التحذير في الأساس تطبيقاً حاذقاً للأساليب والتقنيات الَّتِي أُعِدَّت منذ قرن من الزمان، فإن استراتيجية "النفي المُسبق" الَّتِي استُخدِمَت ضد التضليل والمراوغة الرُّوسِيَّة تمثل ابتكاراً هاماً. وكَانَ أي جهد صادق للنفي المُسبق سيتطلب رفع السرّيّة الاِستِخْبَارَاتِيَّة بعناية وبسرعة من أجل نشر المعلومات في الوقت المناسب. وتهدف مثل هَذِهِ الحملة إلى تزويد الفضاء الإعلامي بالحقيقة - بيانات وتحليلات مرئية ومعلومات قابلة للقياس وحتى ملموسة حول الحشد الروسي والحملة العسكرية. وتاريخياً، لطالما رفعت الحكومات السرّيّة عن المعلومات الاِستِخْبَارَاتِيَّة -بعد أن نقّحتها مما يمكن أن يدل على مصادرها- لدعم القرارات السياسية أو تقديم بدائل عنها، على الرغم من المجهود الكبير الَّذِي يتطلبه هَذَا، إلا أنه نشاط رائع. وتتّبع الحملة نمطاً كلاسيكياً: فهي ترتكز على الحقيقة، وتكرر موضوعاً من زوايا مختلفة، ووقتها مناسب وموجَّهة نحو هدف محدد.

شهدت قضية أُوكرَانيَا - ولا تزال تشهد - إشارة واسعة النطاق إلى المعلومات الاِستِخْبَارِيَّة في العلن. وفي كانون الثاني الماضي، استبقت الولايات المتحدة التحركات الرُّوسِيَّة بنشر معلومات عن المؤامرة الرُّوسِيَّة. وذكر بلينكن أن "رُوسْيَا وجَّهَت أجهزة استخباراتها لتجنيد مسؤولين حاليين وسابقين في الحكومة الأوكرانية للاستعداد للاستيلاء على حكومة أُوكرَانيَا، والسيطرة على البنية التحتية الحيوية لأوكرانيا بقوة رُوسِيَّة محتلة"، وهي رسالة عززها بيان قادَتْه الاِستِخْبَارَات من وزيرة الخارجية البريطانية ليز تروس.

وقبل وقت قصير من الغزو الروسي، قال رئيس الاِستِخْبَارَات الدفاعية في المملكة المتحدة الجنرال السير جيم هوكنهال للصحفيين: "لم نرَ دليلاً على أن رُوسْيَا سحبت قواتها من حدود أُوكرَانيَا، وخلافاً لمزاعمهم، تُواصِل رُوسْيَا بناء قدرات عسكرية بالقرب من أُوكرَانيَا"، ونشرت وزارة الدفاع البريطانية، باستخدام المعلومات الَّتِي قدمتها الاِستِخْبَارَات الدفاعية، تغريدات عن طرق الهجوم المحتملة، وهي خطوط أثبتت صحتها.

لا ينبغي المبالغة في نشر المعلومات الاِستِخْبَارَاتِيَّة، على الرغم من الدعاية الصاخبة الحالية لها. وربما تكون موسكو قد أُجبِرَت على الرد على البيانات الاِستِخْبَارَاتِيَّة، لكن لا ينبغي على الحكومات نشر المعلومات أبداً، ولا يمكن أبدا أن يُنظر إليه على أنه جزء من استراتيجية لردع أي هجوم. ويتعين على المسؤولين والساسة أيضاً أن يحذروا فيما يُصْدِرونه لعدة أسباب. أولاً، كَانَ نهج ما قبل النفي المُسبق ناجحاً لأن الأحداث الَّتِي تنبَّأ بها المسؤولون أصبحت حقيقة. ومحلياً استعادت الاِستِخْبَارَات الأمريكية والبريطانية سمعتها بعد الفشل الذريع في العراق. غير أن التقييمات الصادرة مؤخراً استندت إلى ثقة متوسطة إلى منخفضة. وكما قال أحد المسؤولين: "ليس من الضروري أن تكون المعلومات الاِستِخْبَارِيَّة قوية عندما نتحدث عنها، ومن الأهم أن نخرج أمامهم - بوتين على وجه التحديد - قبل أن يفعلوا شيئاً ما". إن إصدار بيانات قد يتبين أنها غير صحيحة يمكن أن يُضعف الاستخدام المستقبلي للدحض المسبق، لأنه قد يقوّض الثقة الَّتِي بُنِيت بعناية. وبعبارة أخرى، فإن إطلاق تقييمات الثقة المنخفضة لمواكبة التلاعب الروسي بالمعلومات من شأنه أن يؤدي إلى نتائج عكسية، ويقلل من نشر المعلومات الاِستِخْبَارَاتِيَّة لتصبح مجرد دعاية. ثانياً، قد يكون استباق رُوسْيَا في المعلومات هدفاً مهماً، لكن الكشف عن المعلومات يمكن أن يكون بنفس القدر من الخطورة، مهما كَانَ المصدر الفعلي مُقنِعَاً. لا يزال الرد الوقائي أداةً مُهِمَّة، ولكن حماية المصدر ستكون دائماً ذات أهمية قصوى.

مَاذَا في ذَلِكَ؟

تاريخياً، كَانَ النجاح الاِستِخْبَارَاتيّ يترافق في الغالب مع السرّيّة، وأكثر من أي حدث آخر في السنوات الخمسين الماضية، يعود الغزو الروسي لأوكرانيا ليثبت أن ذلك لم يعد صحيحاً. في دراسته الأساسية لنجاح عملية الاِستِخْبَارَات وفشلها، لاحظ إريك دال أنه لتكون المعلومات الاِستِخْبَارَاتِيَّة مفيدة، يجب أن تكون دقيقة وقابلة للتنفيذ. وكما أشار، فإن "الاِستِخْبَارَات التكتيكية الدقيقة، وتقبّل صُنَّاع السياسات القوي للاستخبارات - ضروريان لمنع هجوم مفاجئ". وإن الوعي العام باستخبارات التحذير مليء بقصص الرعب عن إخفاقات الدقة والقدرة على العمل والتكيُّف. وتبرز الأزمة الحالية باعتبارها لحظة تتشابك فيها جميع هَذِهِ المتطلبات الثلاثة للتحذير الفعال بسلاسة تقريباً. وبطبيعة الحال، لم تردع جودة التقييمات وحسن توقيتها زمرة سيلوفيكي المغلقة التابعة لبوتين بشل كافٍ لمنع الحَرْب. لكنها أعطت الوقت للاستعداد عبر مجموعة من الجبهات العسكرية والسياسية، وحشد التحالفات والشراكات، وسمحت لكل من أُوكرَانيَا والقوى الغربية بالدخول في الأزمة الحالية بحذر مسبق لأنها تلقَّت تحذيراً مُسبَقاً.

ومن الأفكار المهمة الأخرى الَّتِي قدمها دال أنه من المهم التعلم من نجاح الاِستِخْبَارَات كما هو الحال من الفشل والتجاور والاستجواب على حد سواء في تناسق. سيكون هناك فتنة، في أعقاب الأزمة الحالية، باعتبار النجاح التحذيري للغزو الأوكراني أمراً مفروغاً منه لأنها الطريقة الَّتِي يجب أن يعمل بها، وفي الواقع فالنجاح الأخير في التحذير يبرر إجراء تقييم للحدث بعد نهايته لا يقل شمولاً وكشفاً عن أسوأ إخفاقات التحذير، من أجل استخلاص كل درس وعبرة يمكن أن تساعد في إعدادنا للأزمة التالية، وحتى الحَرْب المقبلة، لأن هَذِهِ الحَرْب قادمة لا محالةً.

alkhattabirw